أحمد الدَبَش *

انهيار التأريخ «التوراتي»

في السنوات العشرين الماضية أو ما يقاربها، أُلقيت ظلالٌ من الشك العميق على إمكانية كتابة تاريخ لـ"إسرائيل"، استناداً إلى روايات التوراة. ووصل ببعض المؤرخين إلى حد التشكيك، من حيث المبدأ، بإمكانية كتابة تاريخ من هذا النوع، إذ ما زال البحث عن تاريخ "إسرائيل" غامضاً، كما كان دوماً. كما أنّ أي محاولة للتوفيق بين البيّنات التوراتية وغير التوراتية، إثباتاً لتاريخانية "الدولة"، سرعان ما دخلت مرحلة الانهيار، التي ما زالت متواصلة حتى اليوم.

ومن أبرز رواد هذا الإتجاه وأكثرهم تأثيراً تومس طمسن (Thomas L. Thompson)، وفيليب ديفيز (Philip R. Davies)، وكيث وايتلام (Keith W. Whitelam)، ونيلز بيتر لمكه (Neils Peter Lemche)، وجيوفاني غاربيني (Giovanni Garbini).

ولن أمل من تكرار حقيقة معروفة، وهي أنه بعد مرور أكثر من قرن ونيف على التنقيب الأثري الذي لم يترك شبراً أو حجراً من أرض فلسطين دون قلبها، لم يعثر على أثر واحد يربط "العهد القديم" بها، وأي ادعاء بغير ذلك غير صحيح على الإطلاق وتزوير للحقائق.

سأورد في هذه الدراسة عدة أمثلة على إنهيار الروايات التوراتية التي اعتبرت مسلمات حول تاريخ فلسطين ومنطقة الشرق العربي.

الآباء شخصيات خيالية!

وجد الباحثون صعوبة في الاتفاق بينهم على الفترة الأثرية التي تتوافق مع عهد الآباء، متى **عاش إبراهيم وإسحق ويعقوب**؟ متى تم شراء مغارة المكفيلا واستخدمت كقبر للآباء والأمهات؟

* باحث فلسطيني.

حير خروج قوم التوراة من مصر - وادي النيل علماء التاريخ القديم بسبب ما اكتنفته من غموض، دفعت ببعض ثقاة العلماء إلى إبداء الشك الممزوج بالسخرية من مزاعم العهد القديم عنه، فالمعضلة الكبرى تكمن في صعوبة الربط تاريخياً بين التاريخ التوراتي، وأي أصل مصري له، فقد أبت النقوش المكتشفة أن تقدم دليلاً اركيولوجياً على ذلك، والتاريخ المصري القديم، على دقته وسعة معلوماتنا عنه لم يفش أي معلومات عن ارتباط ما بين التاريخ التوراتي وبينه.

بناء على التسلسل التوراتي أقام سليمان الهيكل المقدس بعد ٤٨٠ سنة من الخروج من مصر. ولكن يجب أن تضاف لذلك ٤٣٠ سنة أخرى من المكوث في مصر، وكذلك فترة التواصل العمرية الطويلة للأجداد لتصل إلى تاريخ القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد الذي هو تاريخ هجرة إبراهيم إلى أرض كنعان.

ولم تظهر في الحفريات الأثرية أي دلائل قادرة على تأكيد هذا التسلسل، وادعى أولبرايت في مطلع الستينيات أن هناك توازياً بين فترة ترحال إبراهيم وبين العهد البرونزي (القرن ٢٢ قبل الميلاد)، ولكن بنيامين مازار رائد الفرع "الإسرائيلي" لعلم الآثار التوراتي اقترح تشخيص الخلفية التاريخية لعهد الأجداد بألف سنة بعد ذلك أي في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، أي إبان فترة الاستيطان.[١]

كما برهن علم الآثار الحديث على أن كثيراً من الأماكن التي يفترض أن الآباء الأولين قد زاروها لم تكن في الحقيقة موجودة خلال القرن التاسع عشر قبل الميلاد. والجمال ــ التي تزدحم بها قصة إبراهيم ــ لم تُستأنس إلا في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، كحيوان لنقل الأحمال أولاً ثم كحيوان للركوب بعد ذلك بزمن.[٢]

منذ العقود الأولى للقرن العشرين، ومع الاكتشافات الأثرية العظيمة في بلاد ما بين النهرين [العراق]، وتكثف النشاط الآثاري في فلسطين، اقتنع العديد من المُؤرِّخين وعُلماء الآثار التوراتيين بأنَّ تلك الاكتشافات الجديدة يُمكن أنْ تجعل من المُحتمل ــ إنْ لم تُثبت بالكامل ــ أنَّ الآباء كانوا شخصيَّات تاريخيَّة حقيقيَّة.[٣]

لا يوجد عالم جاد في دراسات العهد القديم [الكتاب] يتقبل أن يكون عصر الآباء عصراً تاريخياً. وأكثر من ذلك، فإن بعض هؤلاء "المؤلفين المحافظين" كانوا قد توصلوا إلى هذه النتيجة نفسها. من هؤلاء وليم ج. ديفر (William G. Dever)، عالم الآثار الأميركي المتخصص بالتاريخ "الكتابي" والذي يُحسب على مدرسة المحافظين الذين يولون أهمية كبيرة للروايات "الكتابية" في كتابة تاريخ فلسطين القديم، أو بلغتهم "تاريخ إسرائيل القديمة". لكنه على الرغم من هذا الانتماء إلى هذه المدرسة المحافظة لم يجد مندوحة من الإقرار بأن الروايات "الكتابية" عن الآباء وعصرهم عديمة القيمة. فهو يؤكد دون موارية: "لقد تخلينا عن الآباء فتلك أصبحت قضية ميتة".[٤]

موسى والأشباح التائهون!

حير خروج قوم التوراة من مصر – وادي النيل علماء التاريخ القديم بسبب ما اكتنفته من غموض، دفعت ببعض ثقاة العلماء إلى إبداء الشك الممزوج بالسخرية من مزاعم العهد القديم عنه، فالمعضلة الكبرى تكمن في صعوبة الربط تاريخياً بين التاريخ التوراتي، وأي أصل مصري له، فقد أبت النقوش المكتشفة أن تقدم دليلاً اركيولوجياً على ذلك، والتاريخ المصري القديم، على دقته وسعة معلوماتنا عنه لم يفش أي معلومات عن ارتباط ما بين التاريخ التوراتي وبينه، وخاصة فيما يتعلق بحادثة الخروج، وهذا ينطبق على سواه من قصص العهد القديم.

هنا لا بد وأن يتساءل المرء عن هذا البطل التوراتي، هل هو حقيقة أم خيال !؟ لقد سقط معظم الباحثين في فوضى من الآراء المتناقضة حول شخصية موسى، فيرى عدد من الباحثين أن النصوص التوراتية قد قلبت معانيها، وأن قصصها خيالية أساساً، كما أن لدى الأكثرية قناعة بأن موسى ما وجد أبداً، وفيما يعلن عالم الآثار وليم ديفر – من جامعة اريزونا – أن موسى شخصية أسطورية، يعلن علماء الآثار القديمة بل ويؤكدون أن قصص موسى، كانت من صنع سياسي، وقد ابتدعت لتجميع

القبائل المبعثرة في أرض كنعان (كائنة أينما كانت)، وذلك بهدف صنع رمز بطولي تاريخي.[5]

مثلما تضاربت الأقوال حول أصل موسى التوراة، وهل موسى التوراة حقيقة أم أسطورة!؟ تضاربت الأقوال في الدخول والخروج من مصر (وادي النيل)، دفع الغموض الذي يشير إليه العهد القديم علماء التاريخ إلى التحري عن حقيقة هذه الإقامة في غضون تلك الأزمنة، وما لهذا الزعم من نصيب في دنيا الحقائق التاريخية، الوثائق المصرية الكثيرة المعروفة لنا لا تتطرق بالمرة إلى مكوث قوم التوراة في مصر أو لخروجهم منها، في وثائق ومستندات كثيرة تطرقوا إلى عادة وتقاليد الرعاة – الرحال (الذين يسمون شاسو) في الدخول إلى مصر إبان القحط والجوع والاستيطان في أطراف الدلتا، ولكن لم يكن ذلك بالحدث الوحيد، فمثل هذه الأحداث ظهرت في أحيان متقاربة خلال آلاف السنين، ولم تكن ظاهرة شاذة.

فالسيد مورة (A.Moret) الفرنسي يذهب إلى: أن ما عثر عليه من المخطوطات واللوائح الأثرية المصرية، وإن كان بعضها يشير أو يرمز إلى أن الفراعنة كانوا يقبلون في بلادهم بعض من يلجأ إليها من الآسيويين، إلا أنها لا تؤكد قطعاً وجود اليهود بين هؤلاء الأغراب.[6]

كما أننا لا نجد في أي نص مصري أقل أثر أو حتى تلميح لتلك الإقامة الطويلة للعبرانيين في بلد الفراعنة.[7] وبالتالي فإن أسطورة العبودية مشكوك في حصولها حيث لا تؤكدها الأثريات المصرية. فنفى عدد من المؤرخين والباحثين هذه الفكرة واعتبروها من نسيج خيال مدوني التوراة، مما حدا بأحد الباحثين الغربيين G.Ernest Wright أن يقول: هناك استحالة أن تتفق التنقيبات الأثرية مع أطروحات التوراة وخاصة قصة الخروج بل إن الدخول فيها محظور بالإطلاق.[8] إن قصة خروج موسى تحتوى على عدة عجائب: منها الطاعون وانتشاره، وانفصال البحر الأحمر لدى خروجه من مصر، والمن والسلوى، والحصول على الوصايا العشر، إن ثقاة العلماء يشعرون ويؤكدون أن هذه القصص جميعها أسطورية. فعن الوصايا العشر يقول الفيلسوف فولتير: إن مختلف أقسام التوراة ليست لها نفس صيغة الصحة والأصالة، فكيف يمكن الاعتقاد بأن موسى لديه ما كتب به في الصحراء حيث لا يوجد حتى أشجار ينقش عليها.[9]

في هذا السياق، يقول الأب انطوني أكس، المحاضر في المدرسة الإنجيلية التوراتية في القدس عن غرق جيش فرعون في البحر: "لو حدث الخروج والتجوال في سيناء لإنعكس ذلك اقتصاديا وسياسياً على المنطقة بكاملها. وباعتبار أننا نعثر في سيناء على آثار من العصر الحجري... فإننا نتعجب من عدم وجود أدلة أثرية على مرور الإسرائيليين في المنطقة".[10]

هكذا، رغم أعمال البحث المكثفة طوال السنين المائة والخمسين الأخيرة. بكل بساطة، لا وجود لأي إشارة مصرية مكتوبة عن موسى ولا عن خروج اليهود من مصر.[11]

دحض نظريات نشوء "إسرائيل" القديمة!

يتفق معظم علماء الآثار التوراتيين، ويساندهم في ذلك البعض في جامعاتنا ومراكز أبحاثنا، على أن نشوء "إسرائيل" القديمة في بلادنا فلسطين تم نحو ١٢٠٠ ق.م، وهي الفترة الانتقالية الواقعة بين أواخر العصر البرونزي وأوائل العصر الحديدي. وتلك هي الفترة التي يطلق عليها عادة فترة "النشوء"، أو "أصول" "إسرائيل". وهي الفترة التي يفترض أن تكون إسرائيل (المزعومة) تلك قد سيطرت فيها على فلسطين. لكنهم يختلفون اختلافاً حاداً حول الكيفية التي تمت لهم السيطرة على تلك البلاد.

فالجدل المتعلق بجذور ونشوء "إسرائيل" القديمة يصور عموماً كأنه نقاش حول ثلاثة نماذج أو فرضيات نلخصها على النحو التالي:

١. قدمت "**المدرسة الأميركية**" "ممثلة بكل من: **وليم أُلبرايت (١٩٣٥ – ١٩٣٩ م)، وج. إرنست رَايت (١٩٦٢ م)، وجُون برايت (١٩٥٦ – ١٩٨١ م)، ومول لب، التي انضم إليها بعض الباحثين الإسرائيليين أمثال أهاروني (١٩٧٩ م)، وملامات (١٩٧٩ – ١٩٨٢)، ويادين (١٩٧٩ – ١٩٨٢م)**: حججًا قاطعة بأن الدليل الأثري عزز "**نظرية الغزو**" (أي رواية العهد القديم). لكن هذه النظرية لا تأخذ بعين الاعتبار التحليلات النقدية لأسفار التوراة منذ عصر التنوير. وتفتقر إلى دليل آثاري. ومن الجدير بالذكر أن تومس طمسن، وزملاء آخرين له، يتفقون على رفض فرضية الغزو ويضيفون القول: إن معاينات عالم الآثار "الإسرائيلي" فنكلشتاين (الآثارية) توضح بشكل كامل أن نظرية الغزو ميتة... وللأسباب التالية: العديد من المواقع لم تكن مأهولة في فترة نهاية العصر البرونزي المتأخر؛ العديد من المواقع هجرت في نهاية تلك الفترة الزمنية لكنها لم تتعرض للتدمير. العديد من المواقع العائدة للعصر البرونزي استمرت قائمة في العصر الحديدي الأول، وتلك المواقع العائدة للعصر البرونزي المتأخر التي لم تظهر فيها آثار تدمير كانت مهجورة لفترة طويلة. أكثر من ذلك، وجد علماء الآثار أنه من الصعوبة بمكان، التحقق من خلال طبقات متجمعة، تحدد بشكل مميز وجود بني إسرئيل في العصرالحديدي الأول.

يشترك النموذجان" الألماني والأميركي" في الرأي القائل: إن دخولاً واسع النطاق لشعب (أطلق عليه لاحقًا بنو إسرئيل)عند بداية العصر الحديدي، إلى المناطق الجبلية في فلسطين، سواء من خلال التغلغل القبلي السلمي نسبيًا "النموذج الألماني" أو من خلال الغزو "النموذج الأميركي". ومثله كل من: جورج مندنهول، ونورمان غوتفالد، وكورنليس دي غويس: يرون أن ذلك تم عبر "إعادة تنظيم اجتماعي"، أي "غزو وتسلل وتمرد". لكن هذه النظرية غير قادرة على تقديم شروح كافية لسبب حدوث مثل هذه التطورات.

٢. قدمت "**المدرسة الألمانية**" في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، بوساطة **ألبرشت، وألت (١٩٥٣م)، ومارتن نوث (١٩٦٠)، ومانفرد فايبرت (١٩٧١ – ١٩٧٩)**. نموذج "**التغلغل القبلي**" الذي كان نتيجة "عملية تسلل إلى فلسطين"، لكن هذه النظرية لا تشرح كيفية سقوط المدن الكنعانية.

٣. يشترك النموذجان" **الألماني والأميركي**" في الرأي القائل: إن دخولاً واسع النطاق لشعب (أطلق عليه لاحقًا بنو إسرئيل) عند بداية العصر الحديدي، إلى المناطق الجبلية في فلسطين، سواء من خلال التغلغل القبلي السلمي نسبيًا "النموذج الألماني" أو من خلال الغزو "النموذج الأميركي". ومثله كل من: **جورج مندنهول، ونورمان غوتفالد، وكورنليس دي غويس**: يرون أن ذلك تم عبر "**إعادة تنظيم اجتماعي**"، أي "**غزو وتسلل وتمرد**". لكن هذه النظرية غير قادرة على تقديم شروح كافية لسبب حدوث مثل هذه التطورات.

وفي الوقت نفسه، أخفقت كل هذه النظريات في أن تأخذ بعين الاعتبار المكتشفات الآثارية الأخيرة. هنا نرى أن العالم يتقدم بنظرية رابعة أطلق عليها اسم "**افتراضية التعايش المتكافل**"، والتي تشبه إلى حد كبير نظرية التسلل.[١٢]

يساهم تطوران حديثان في تقويم يقضي بأن كل واحد من النماذج الثلاثة هو تلفيق بدلاً من أن يكون وصفًا لماض قديم. **أولاً**: يلقي النقد الأدبي والمرجعي لأسفار الشريعة الخمسة ولما يطلق عليه: التاريخ التثنوي، من التكوين إلى الملوك الثاني، ظلالاً خطيرة من الشك على صحة استخدام هذه التقاليد المتأخرة في بناء تاريخ جديد لماض مبكر جدًا. **ثانيًا**: تصطدم المعطيات الأثرية المجتمعة من حفريات الموقع الواحد والمسح المناطقي، بمزاعم القصة الكتابية.

في هذا السياق، يقول العلامة كيث وايتلام، في كتابه "تلفيق إسرائيل التوراتية، طمس التاريخ الفلسطيني"، على الفرضيات الثلاث السائدة بالقول: "لقد برهنت أنَّ تغير منظور قراءة الكتاب العبري، الذي أثار عدة تساؤلات حول الفرضيات التاريخية النقدية السائدة واستخدام الموروث الكتابي من أجل إعادة البناء التاريخي، بالإضافة إلى تراكم المعطيات الآثارية من حفريات موقع واحد، وعمليات المسح الإقليمية لفلسطين، قد بينت كلها أن هذه الأنماط والنظريات المتنوعة ليست أكثر من اختلاقات لماض متخيل. والعجز المتزايد للتركيبات الأساسية الثلاث للأصول الإسرائيلية عن التعامل مع الكم المتزايد من الأدلة، بالإضافة إلى التقليل من مغزى ما تعتبره نصاً يلقي المزيد من الضوء على المدى الذي تم فيه اختراع إسرائيل".[١٣]

وهكذا، وبعد هذا الفشل الذريع في العثور على أقل دليل يثبت هذه النظريات، وأمام إنهيار الرواية التاريخية التوراتية، أراد عالم الآثار إسرائيل فنكلشتاين، إنقاذ ما تبقى من سمعة الرواية التاريخية التوراتية، فذهب إلى أن "الإسرائيليين لم يأتوا إلى فلسطين في صورة محتلين من الخارج، وإنما انبثقوا ونبتوا من داخل هذه البلاد، فهم السكان الأصليون وليسوا وافدين ولا مهاجرين، فيزعم أن علم آثار السنوات الأخيرة يكشف سلسلة أحداث مغايرة لقضية الاستيطان ـ الهجرة من الخارج – والنظريات العلمية التي سيطرت منذ نهاية القرن الماضي انهارت واحدة تلو الأخرى، والصورة التي تظهر اليوم من المكتشفات الأثرية! تفيد بأن الكيان الإسرائيلي ظهر من خلال سكان محليين وليس نتيجة لحدث واحد – الهجرة – وقد كان مرحلة في سلسلة أحداث دورية متكررة طويلة المدى في تاريخ البلاد، ولم يتغذ [الوجود الإسرائيلي] من السكان الذين جاؤوا من خارج البلاد؟!".[١٤]

احتوى بناء فنكلشتاين التاريخي لبدايات "إسرائيل"، على أخطاء قليلة هائلة، والناتجة عن تأثره البالغ بالتوراة.
هكذا فسَّر فنكلشتاين وسيلبرمان، هذه النظرية في كتابهما "التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها"، بأن بروز إسرائيل المُبكِّرة كان نتيجة لانهيار الثقافة الكنعانية، وليس سبباً له. وأغلب الإسرائيليين لم يأتوا من خارج كنعان - بل ظهروا من داخلها .

يؤكد فنكلشتاين، في كتابه "أركيولوجيا الاستيطان الإسرائيلي"، المنشور عام ١٩٨٦، أن المواقع الجديدة في الهضاب المركزية هي بالفعل مواقع إسرائيلية، ولكن من شكلوها لم يأتوا من خارج فلسطين بل من داخلها. فقد أدى الجفاف، الذي حل بالمنطقة خلال العصر البرونزي الأخير إلى اقتلاع شامل للسكان في منطقة الهضاب المركزية، وحولهم إلى رعاه متنقلين. وعندما عاد المناخ المطيري سيرته الأولى عادت هذه الجماعات المقتلعة إلى مواطنها السابقة واستقرت فيها. وبذلك يعمل فنكلشتاين على تجذير القبائل الإسرائيلية في المنطقة، ويؤكد على الطابع الإثني المستمر والمتميز لهذه الجماعات، التي شكلت إسرائيل فيما بعد.[١٥]

في هذا الصدد يقول طمسن، يؤكد فنكلشتاين من دون دليل، وعلى أساس ظاهر مرويات توراتية لاحقة غير مدققة، أن أصول إسرائيل توجد في مجموعات محددة من المستوطنات الجديدة في المرتفعات الوسطي والجليل، مؤكدا أن نماذج الاستيطان التي يفحصها ذات أهمية كبيرة، ولكن لا سبب يدعونا للزعم بأن سكان المناطق الجبلية، أو المستوطنين الجدد في تلك المنطقة مرتبطون بشكل متميز بإسرائيل الناشئة. في تقييم دراسة فنكلشتاين، تصبح مسألة تحديد ما يجب إدراجه ضمن مفهوم إسرائيل، في أي مدى زمني محدد، صعبة لأن معيار فنكلشتاين نفسه يبدو تعسفياً تماماً، حتى أن المرء يقاد إلى الشك بصحة عنوان كتاب فنكلشتاين "أركيولوجيا الاستيطان الإسرائيلي" وثقته به. أليس الأولى والأفضل أنه يتعامل مع أركيولوجيا مستوطنات العصر الحديدي الأولى في فلسطين الوسطى، تاركاً للآخرين مسألة أصول إسرائيل؟.[١٦]

فقد احتوى بناء فنكلشتاين التاريخي لبدايات "إسرائيل"، على أخطاء قليلة هائلة، والناتجة عن تأثره البالغ بالتوراة.

هكذا فسَّر فنكلشتاين وسيلبرمان، هذه النظرية في كتابهما "التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها"، بأن بروز إسرائيل المُبكِّرة كان نتيجة لانهيار الثقافة الكنعانية، وليس سبباً له. وأغلب الإسرائيليين لم يأتوا من خارج كنعان – بل ظهروا من داخلها –. ولم يكن هناك خُروج جماعي من مصر، بل لم يكن هناك غزو وفتح عنيف لكنعان. وأغلب الذين شكَّلوا الإسرائيليين الأوائل كانوا أناساً محليين ــ نفس الناس الذين نراهم في المرتفعات طُول فترة العصرَيْن البرونزي والحديدي ــ. كان الإسرائيليون الأوائل ــ من سُخرية السُّخريات ــ أنفسهم ــ أصلاً ــ كَنْعَانِيِّين.[١٧]

وفي وطننا العربي باحثون، يعجبهم أن يأخذوا اجتهادات أصحاب الخطاب التوراتي هذه وكأنها الحقيقة، فها هو ذا الباحث فراس سواح، يأتي بنظرية مثيرة للاستغراب، وهي [نظرية التطور الديني المحلي]، والتي تتفق إلى حد بعيد مع نظرية جورج مندنهول، ونورمان غوتفالد، من حيث تركزها على التمايز الديني لسكان المناطق الهضبية عن الوسط الكنعاني، ولكنها تختلف معها بإسقاطها لعنصر الانتفاضة الداخلية. ولعل المقطع التالي، يعبر عن جوهر هذه النظرية: "لقد أوصلتنا دراسة المخلفات المادية للثقافة الإسرائيلية!!، إلى القول بأن أرض فلسطين لم تعرف شعباً متميزاً اسمه الشعب الإسرائيلي، ولا ثقافة خاصة يمكن وصفها بالثقافة الإسرائيلية. ذلك أن كل ما كشف عنه علم الآثار يدل على ثقافة سورية كنعانية في تطورها الذاتي الطبيعي. ثم جاءت دراستنا للتراث اللغوي والأدبي والديني لما يدعى بالثقافة إسرائيلية، لتدعم نتائجنا المبدئية. فاللغة التي نطق بها الإسرائيليون كانت كنعانية، والخط الذي كتبوا به كان كنعانياً، وآدابهم تجد جذورها في الأدب الكنعاني على ما تدل عليه المقارنة مع الأدب الأوغاريتي، ومعتقدهم التوراتي الذي وجدوا فيه مصدر تميزهم قد نشأ وتطور نتيجة لجدليات المؤسسة

قلنا إن النظريات السائدة حول الكيفية المفترضة لنشوء "إسرائيل القديمة" ؟! في بلادنا فلسطين انهارت بمجرد عرضها على المكتشفات الآثارية التي أوضحت "عدم وجود أي قطيعة ثقافية بين العصر البرونزي المتأخر والعصر الحديدي".
بناءً على كل ما سقناه آنفاً نتوصل إلى نتيجة واحدة، وهي أن الفترة الانتقالية وعصر الحديد الأول، لم يشهدا وصول جماعات معروفة بـ "الإسرائيلية" إلى بلادنا فلسطين. وإن مسألة الإثنية، برمتها، في السجلات الإركيولوجية، لا مبرر لها.

الدينية الكنعانية. ولا ينجم عن ذلك كله إلا القول بأن الشعب الذي أنتج ما يدعى بالثقافة الإسرائيلية، هو فئة كنعانية لم تغادر فلسطين قط، مع بقاء الاحتمال قائماً في أنها ربما استقبلت فئة قليلة من النازحين من مصر. وعندما بدأ كهنة يهوذا في المنفى بتحرير أسفار التوراة، كتبوا تاريخ بني إسرائيل من وجهة نظرهم، فجعلوا منهم فئة متميزة منذ البداية، سعياً وراء ترسيخ الصيغة الأخيرة للدين اليهودي الذي صار مصدر تماسكهم وأملهم في الوقوف في وجه الفناء. لقد ميز كهنة يهوه أنفسهم وبقية سبي يهوذا عن كنعان تمييزاً مطلقاً، وجعلوا من الفارق الديني الذي يفصلهم عن بقية الكنعانيين، فارقاً في كل شيء".[١٨]

لم يقدم السواح، دليلاً تاريخيًا مقنعاً على وجود التمايز الديني. فهذه النظرية لا تقدّم دليلاً وحيداً مطلوباً من خلال تاريخ علمي حقيقي.

قلنا إن النظريات السائدة حول الكيفية المفترضة لنشوء "إسرائيل القديمة" ؟! في بلادنا فلسطين انهارت بمجرد عرضها على المكتشفات الآثارية التي أوضحت "عدم وجود أي قطيعة ثقافية بين العصر البرونزي المتأخر والعصر الحديدي".

بناءً على كل ما سقناه آنفاً نتوصل إلى نتيجة واحدة، وهي أن الفترة الانتقالية وعصر الحديد الأول، لم يشهدا وصول جماعات معروفة بـ "الإسرائيلية" إلى بلادنا فلسطين. وإن مسألة الإثنية، برمتها، في السجلات الإركيولوجية، لا مبرر لها.

مملكة على الورق!

من القضايا المهمة التي تشير إلى مغالطات المؤرخين وتبنيهم وجهة نظر التوراة، وأحياناً كثيرة المغالاة فيها موضوع و"المملكة الداودية – السليمانية"، فمعظم الذين كتبوا في هذا الموضوع من الباحثين التوراتيين والغربيين وساندهم في ذلك بعض الأكاديميين العرب، أشاروا إلى أن هذه المملكة، التي عادة ما تُرْبَطُ بالفترة الممتدة من (٩٦٠ ـ ٩٣٠ ق.م)، كانت أعظم إمبراطوريات المشرق العربي، وأن حدودها امتدت لتغطي كل بلاد الشام، ولم تقتصر على فلسطين فحسب. وبالرغم من أن التوراة لا تكل عن مديح عصر داود وسليمان واعتباره العصر الذهبي الإسرائيلي، والإشادة بما يقال عن إنجازات عصرهما الثقافية والعمرانية والإدارية، فمن الطبيعي أن نتوقع العثور، على أثر واحد على الأقل يعود إلى تلك المرحلة عمرانياً كان أم وثيقياً أو نقشاً، أو ما إلى ذلك، لكن الحقيقة، حتى هذه اللحظة، لم يتمكن الآثاريون من العثور على أي دليل يشير، صراحة أو كناية، إلى المملكة الداودية ـ السليمانية في فلسطين.

إن مصدرنا الوحيد عن أعمال داود وسليمان وعن دورهما السياسي والعمراني هو التوراة، والتوراة وحدها، إذ لم يعثر المنقبون على أي أثر من هذا الدور. فلا توجد مصادر تاريخية تدعم السجل التوراتي، كما لا تسهم المخلفات الأثرية في إيضاح ذلك. لا شك في أن للباحث أن يطرح تساؤلات في حالة انعدام الوثائق والبيانات، فالمملكة الدوادية – السليمانية المزعومة التي تأسست مع نهاية الألف الثاني قبل الميلاد في فلسطين، كما يزعم بعض الباحثين الغربيين ومن يواليهم في جامعاتنا ومراكز أبحاثنا، لابد أن تكون قد سبقتها مدة طويلة وأن يكون تأسيسها قد تمخض عن صراع محتدم بين دويلات المدن آنذاك، فأين هي مقدمات تأسيس المملكة الدوادية ـ السليمانية ؟!

إذا كان علماء الآثار يبحثون عن أرشيف تاريخي للمرحلة السابقة لممالك داود وسليمان. فإنهم لم يعثروا على ذلك في فلسطين، علماً بأن الدول المجاورة قد قدمت أرشيفاً تاريخياً للمرحلة نفسها.

شكك عالم الآثار (الإسرائيلي) يسرائيل فنكلشتاين، من جامعة تل أبيب بوجود أي صلة لليهود بالقدس، جاء ذلك خلال تقرير نشرته مجلة "جيروساليم ريبورت" (الإسرائيلية) توضح فيه وجهة نظر فنكلشتاين، الذي أكد أنه لا يوجد أساس أو شاهد إثبات تاريخي على وجود داود، هذا الملك المحارب الذي اتخذ القدس عاصمة له والذي سيأتي (الميا) من صلبه للإشراف على بناء الهيكل الثالث، مؤكداً أن شخصية داود كزعيم يحظى بتكريم كبير لأنه وحد مملكتي يهودا وإسرائيل هو مجرد وهم .

يعلن أمنون بن ثور، عالم الآثار في الجامعة العبرية، أن المسألة تشبه نقطة زيت تسقط فجأة قد تجدها في كل مكان إلا هنا.[١٩]

ففي السنوات الأخيرة، بدأ الإجماع على فكرة وجود المملكة الدوادية – السليمانية يتداعى تدريجياً، وإن كانت هذه الفكرة لا تزال تهيمن على خطاب الدراسات التوراتية، ومن يواليهم من بعض الأكاديميين العرب. فقد أصدر ليتش نقداً معتدلاً في حدته للاستخدام التاريخي للقصص التوراتية من منظور (أنثروبولوجي) بنيوي. والموضوع السائد في كتابه هو أن الكتاب العبري بوصفه نصاً مقدساً لا يوفر مصدراً تاريخياً ولا يعكس بالضرورة حقيقة عن الماضي. إنه يمثل عند "ليتش" تبريراً للماضي يكشف عن عالم القصّاصين أكثر مما يكشف عن أي حقيقة تاريخية. ويطرح أسئلة مهمة جداً تثير شكوكاً حول التقديمات السائدة لحكمي داود وسليمان، وتُسائل تاريخية هذه المرحلة المهمة كما قُدمت في الموروثات الكتابية؛ أنا شخصياً أرى ذلك غير قابل للتصديق. ليس هناك أي دليل أثري على وجود هذين البطلين أو على وقوع أي من الأحداث التي ارتبطت بهما. ولولا قداسة هذه القصص لكان وجودهما التاريخي مرفوضاً بالتأكيد.[٢٠]

مما قاله العالم روني ريك في هذا الصدد: "آسف أن السيد داود والسيد سليمان لم يظهرا في هذه القصة".[٢١]

إن السمة الأكثر إدهاشاً في الخطاب [الكتابي] هي الصمت المطبق للسجل الآثاري حول ما يتعلق باللحظة التعريفية [فترة سليمان وداود] في تاريخ المنطقة. إنه الصمت الذي ساهم بشكل أساسي القوى ضمن مشروع، وتحديداً بسبب أنه أكد تحامل المؤرخين الكتابيين الذين قرروا أن كتابه التاريخ تعتمد على المصادر المكتوبة، كما صرح غاريبيي وليتش وفلاناغان، أن صمت السجل الآثاري هو الذي يطرح أكثر الأسئلة جدية حول تقديم إمبراطورية إسرائيلية بوصفها تعبيراً عن ثقافة حضارة

النبش بحثا عن شرعية مدفونة: زواج الأثري من الاستعماري.

نهضوية ويوحي بأننا نتعامل مع ماضٍ مخترع.[٢٢]

يشير مِلَّر، إلى أنه ليس هناك دليل على المملكة الداودية - السليمانية خارج التقاليد والموروثات الكتابية، المؤرخون الذين يتحدثون عن هذا الكيان إنما يفترضون مسبقاً صحة المعلومات التي يأخذونها من الكتاب العبري.[٢٣]

شكك عالم الآثار (الإسرائيلي) يسرائيل فنكلشتاين، من جامعة تل أبيب بوجود أي صلة لليهود بالقدس، جاء ذلك خلال تقرير نشرته مجلة "جيروساليم ريبورت" (الإسرائيلية) توضح فيه وجهة نظر فنكلشتاين، الذي أكد أنه لا يوجد أساس أو شاهد إثبات تاريخي على وجود داود، هذا الملك المحارب الذي اتخذ القدس عاصمة له والذي سيأتي (الميا) من صلبه للإشراف على بناء الهيكل الثالث، مؤكداً أن شخصية داود كزعيم يحظى بتكريم

إذن لا يوجد متسع لمملكة متحدة تاريخية أو لملوك كأولئك الذين جرى تقديمهم في القصص الكتابية لشاول وداود وسليمان. إن الحقبة المبكرة التي تؤطر فيها التراثات حكاياتها هي عالم خيالي من زمن غابر لم يوجد على هذا النحو أبداً.

كبير لأنه وحد مملكتي يهودا وإسرائيل هو مجرد وهم وخيال لم يكن لها وجود حقيقي. كما يؤكد فنكلشتاين أن وجود باني الهيكل وهو سليمان بن داود مشكوك فيه أيضاً.[٢٤]

يقول العلاّمة طمسن في كتابه "الماضي الخرافي (التوراة والتاريخ)": "جرى تقديم [القرن العاشر ق.م] بوصفه العصر الذهبي لإسرائيل وعاصمتها في أورشليم. كانت تلك الحقبة مرتبطة بالمملكة المتحدة التي تضم السلطة السياسية لشاول وداود وسليمان وتسيطر على الجسر البري الضخم من النيل إلى الفرات. إضافة إلى مفهومها عن الهيكل الذي بناه سليمان بوصفه مركزاً لعبادة يهوه. تلك الصور لا مكان لها في أوصاف الماضي التاريخي الحقيقي. إننا نعرفها فقط كقصة، وما نعرفه حول هذه القصص لا يشجعنا على معاملتها كما لو أنها تاريخية، أو أنه كان يقصد منها أن تكون كذلك. ولا يتوافر دليل على وجود مملكة متحدة، ولا دليل على وجود عاصمة في أورشليم، أو وجود أي قوة سياسية موحدة متماسكة، هيمنت على فلسطين الغربية، ناهيك عن إمبراطورية بالحجم الذي تصفه الحكايات الأسطورية. ولا يتوافر أي دليل على وجود ملوك يدعون شاول أو داود أو سليمان؛ ولا نملك دليلاً على وجود هيكل في أورشليم في هذه الفترة المبكرة. ما نعرفه عن إسرائيل ويهوذا القرن العاشر لا يسمح لنا بتفسير انعدام الدليل هذا بوصفه فجوة في معرفتنا ومعلوماتنا حول الماضي، أو مجرد نتيجة للطبيعة العرضية للآثاريات. ما من متسع ولا سياق، لا شيء مصطنع أو أرشيف يشير إلى مثل هذه الحقائق التاريخية في القرن العاشر في فلسطين. لا يمكن للمرء أن يتكلم على دولة بلا سكان. ولا يمكنه أن يتكلم عن عاصمة من دون بلدة. والقصص ليست كافية".[٢٥]

إذن لا يوجد متسع لمملكة متحدة تاريخية أو لملوك كأولئك الذين جرى تقديمهم في القصص الكتابية لشاول وداود وسليمان. إن الحقبة المبكرة التي تؤطر فيها التراثات حكاياتها هي عالم خيالي من زمن غابر لم يوجد على هذا النحو أبداً .. لم يكن من الممكن أن توجد مملكة لأي شاول أو لأي داود ليكون ملكاً عليها، ببساطة لأنه لم يكن ثمة ما يكفي من الناس. دولة يهوذا لم تكن فقط غير موجودة بعد، بل إننا لا نملك أي دليل على وجود أي قوة سياسية في أي مكان في فلسطين كانت كبيرة بما يكفي، أو متطورة بما يكفي لأن تكون قادرة على توحيد الاقتصادات والأقاليم العديدة لهذه البلاد. في هذا الوقت كانت فلسطين أقل توحداً بكثير مما كانت عليه لأكثر من ألف عام. ويكاد الحديث أن يكون غير ممكن تاريخياً عن أورشليم القرن العاشر. فلو وجدت إطلاقاً، ولم تعثر سنوات من التنقيب على أي أثر لبلدة من القرن العاشر، لكانت ما تزال تبعد قروناً عن امتلاك المقدرة على تحدي أي من (العشرينيات) أو أكثر، من بلدات فلسطين القوية المتمتعة بالحكم الذاتي.[٢٦]

إن الصورة التقليدية التي تقدمها أسفار العهد القديم عن أورشليم مطلع العصر الحديدي الأول، مدينة داود وسليمان، هي صورة مدينة كبيرة جميلة، ذات تحصينات وقصور ومخازن، ومعبد رائع الصنعة. وفي المقابل، فإن مؤلفات صدرت حديثاً لطمسن، وديفيد جميسون درايك، ترى أن أورشليم القرن العاشر قبل الميلاد، لم تكن أكثر من بلده صغيرة لعبت دور السوق المحلى للمنطقة. إن البقايا الأثرية التي اكتُشفت حتى الآن لتدل على أن أورشليم كانت خلال القرن العاشر والقرن التاسع قبل الميلاد بلدة متواضعة تشغلها بصورة رئيسية الأبنية الإدارية، أما مساحتها فلم تزد عن ٣٠ أكراً، ولم يسكن فيها أكثر من ٢٠٠٠ نسمة. أي أنه في زمن ما من القرن العاشر والتاسع قبل الميلاد

جرى تشييد بلدة جديدة تحتوى على أبنية عامة ولكن من دون منطقة سكنية واسعة. ونحن هنا نصف هذه البلدة بالجديدة لأن بلدة ـ عصر البرونز الوسيط لم تكن قائمة خلال عصر البرونز الأخير وعصر الحديد الأول. ومن المستبعد أن هذه البلدة كانت عاصمة لدولة كبرى كتلك الموصوفة في النص التوراتي، مملكة إسرائيل الموحدة.[٢٧]

يقول أ. فنكلشتاين ون. سلبرمان: "وكما رأينا، فإنه لا وجود لشواهد أركيولوجية مقنعة على وجود مملكة تاريخية موحدة اشتملت على جميع أراضي إسرائيل [فلسطين]، وكانت عاصمتها في أورشليم".[٢٨]

هكذا، لم يتمكن الأثريون من العثور على دليل يشير صراحة أو كناية إلى مملكة داود وسليمان في فلسطين. وبينما تقول رواية سفر صموئيل الثاني وسفر الملوك الأول بأن الملك داود أقام إمبراطورية تمتد بين النيل والفرات أورثها لسليمان بعد وفاته، لم يتمكن رجال الآثار من العثور على ذكر واحد لأي من ملكي بني إسرائيل، رغم وجود ٣٠٠ موقع تقوم فيها البعثات الأثرية بأعمال الحفر، في بلادنا فلسطين. وإذا كانت المملكة الداودية ـ السليمانية، ليست أكثر من اختراع توراتي تنفيه كل الوقائع الأركيولوجية والتاريخية في بلادنا فلسطين.

في خضم كل ما سبق، وبعد أن تبين لنا وجود تناقض بين ما تسطره "التوراة" فيما يخص تفاصيل المواقع الجغرافية، وبين ما تشهد به الأرض بعد أن استنطقتها علوم الآثار. وانطلاقاً من حقيقة غياب أي لقى آثارية واضحة تحسم بأن فلسطين احتضنت تجربة "بني إسرائيل"، وبعد أن رأينا أن حركة التاريخ التوراتي لا تنسجم مع جغرافية المنطقة من العراق إلى الشام وإلى مصر، وأن الخطاب الكتابي لفق جغرافية "التوراة".

ألا يحق لنا أن نقول: التوراة لا إثباتات على الأرض. وأن نعلن على الملأ لقد سقط الوهم التوراتي أمام ضربات مجرفة الأثري.

الهوامش

١ زئيف هرتسوغ، التوراة: لا إثباتات على الأرض، جريدة هآرتس، إسرائيل، ١٩٩٩/١١/١٨.

٢ هانس فوروهاجن، **فلسطين والشرق الأوسط بين الكتاب المقدس وعلم الآثار**، ترجمة: سمير طاهر، ط١، القاهرة، الكتب خان للنشر والتوزيع، ٢٠١٧، ص ٧٤.

٣ إسرائيل فنكلشتاين ونيل أشر سيلبرمان، التوراة **اليهودية مكشوفة على حقيقتها**، ط١، دمشق، الأوائل للنشر والتوزيع،٢٠٠٥، ص٦٣.

٤ د. عصام سخنيني، **تهافت التأريخ التوراتي**، ط١، عمان، الأهلية للنشر والتوزيع، ٢٠١٨، ص ١١٢.

٥ فرج الله صالح ديب، **كذبة السامية وحقيقة الفينيقية**، ط ١، بيروت، دار نوفل، ١٩٩٨، ص ٣١.

٦ سليمان ناجي، **المفسدون في الأرض**، ط٢، دمشق، العربي للإعلان والنشر والطباعة، ١٩٧٣، ص ٢٦.

٧ رجا جارودي، **فلسطين أرض الرسالات الإلهية**، ترجمة: د. عبد الصبور شاهين، دار التراث، بدون تاريخ، ص ٧٠ ــ نقلاً عن الأب دوفو.

٨ جودت السعد، **أوهام التاريخ اليهودي**، ط١، عمان، منشورات الأهلية، ١٩٩٨، ص (٢٤٤ ــ ٢٤٥).

٩ اندريه كريسون، **فولتير حياته** ـ آثاره ـ فلسفته، ترجمة: د. صباح محي البدين، ط٢، بيروت - باريس، منشورات عويدات، ١٩٨٤، ص ٤٨.

١٠ ديب، كذبة **السامية وحقيقة الفينيقية**، مرجع سبق ذكره، ص ٣١.

١١ فوروهاجن، **فلسطين والشرق الأوسط بين الكتاب المقدس وعلم الآثار**، مرجع سبق ذكره، ص ٧٩.

١٢ أحمد الدبش، فلسطين من هنا بدأت الحضارة من العصر البرونزي القديم إلى الاحتلال الفارسي، [قيد الإنجاز زالطباعة].

١٣ كيث وايتلام، **تلفيق إسرائيل التوراتية طمس التاريخ الفلسطيني**، ترجمة: ممدوح عدوان، ط٢، دمشق، قدمس للنشر والتوزيع،٢٠٠٢، ص (١٦٩- ١٧٠).

١٤ جريدة القدس العربي (لندن)، ١٩٩٨/٤/١٥ ــ ١٩٩٨/٠٦/٠٦.

١٥ فراس السواح، **آرام دمشق وإسرائيل في التاريخ والتاريخ التوراتي**، ط٢، دمشق، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، ١٩٩٥، ص ١٧٥.

١٦ تومس طمسن، **التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي**، ترجمة: صالح على سوادح، بيروت، بيسان للنشر والتوزيع، ١٩٩٥، ص ١١٣.

١٧ فنكلشتاين وسيلبرمان، **التوراة مكشوفة على حقيقتها**، مرجع سبق ذكره، ص ١٦٢.

١٨ فراس السواح، **تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود**، ط٣، دمشق، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠٠٣، ص ٢٥.

١٩ ديب، **كذبة السامية وحقيقة الفينيقية**، مرجع سبق ذكره، ص ٣٢.

٢٠ وايتلام، **تلفيق إسرائيل التوراتية طمس التاريخ الفلسطيني**، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٣.

٢١ العصور الجديدة (القاهرة)، أحمد الدبش، **إسرائيل أمة مفتعلة**، العدد ١٥، السنة الثانية، دار العصور الجديدة، تشرين الثاني ٢٠٠٠.

٢٢ وايتلام، **تلفيق إسرائيل التوراتية طمس التاريخ الفلسطيني**، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٤.

٢٣ المرجع نفسه، ص ٣٥٦.

٢٤ جريدة القدس العربي (لندن)، ١٩٩٨/٤/١٥. لمزيد من التفاصيل حول «المملكة الداودية السليمانية» يُراجع: إسرائيل فنكلشتاين و نيل أشر سيلبرمان، **التوراة مكشوفة على حقيقتها**، ترجمة: سعد رستم، ط١، دمشق، الأوائل للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ص (١٦٧- ١٩٢).

٢٥ تومس طمسن، **الماضي الخرافي** (التوراة والتاريخ)، ترجمة: عدنان حسن، ط٢، دمشق، قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣، ص (٢٦٨- ٢٦٩).

٢٦ المرجع نفسه، ص (٣٢٣- ٣٢٤).

٢٧ د. تومس طمسن ود. سلمى الخضراء الجيوسي، **أورشليم العصور القديمة بين التوراة والتاريخ**، تحرير: ترجمة: د. فراس السواح، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٣. (أنظر الفصل الثالث، مارغريت شتاينر، حدود متوسعة: تطور أورشليم في عصر الحديد، ص (١١٣- ١١٦).

٢٨ د. تومس طمسن ود. سلمى الخضراء الجيوسي، **أورشليم العصور القديمة بين التوراة والتاريخ**، تحرير: ترجمة: د. فراس السواح، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٣. (أنظر الفصل العاشر، إنغريد هيلم، قتال الأخوة: النزعة الإثنية لدي اليهود والسامريين في التاريخ والروايات التوراتية، ص ٢٩٢).